الشعور بالمسؤولية.. وترسيخ مدلولاتها ومعانيها.. مهمة مَنْ ؟

بغداد/ شاكر الميام

نسمع ونشاهد الكثير من المواطنين الذين يرددون ويركزون على موضوعة (الشعور بالمسؤولية) في شتى المحافل والتجمعات، وترد كثيرا في خطابات السياسيين والمثقفين، وعلى ألسنة رموز اجتماعية ودينية، وقيادات منظمات المجتمع المدني ودعاة حقوق الانسان، والشفافية، والديمقراطية، ولم يقتصر الامر على هؤلاء، بل تعداه ليشمل قيادات تربوية وتعليمية، وكذلك زعماء قبائل وشيوخ عشائر في دعواتهم للتعايش السلمي بين مكونات الشعب وللمساواة الاجتماعية والسلم الاجتماعي. اسئلة كثيرة تبرز وتتعقد كلما اوغلنا في هذا السبيل. (الشعور بالمسؤولية) أهو قضية اخلاقية؟ ام انها مسألة فكرية وفلسفية؟ او هي موضوعة ترتبط بالثقافة والوعي والتحضر؟ ومن ينتج ويعمق هذه الثقافة داخل الفرد والجماعة؟ أهو السياسي المحترف والمستقل؟ ام السياسي المتحزب؟ (الشعور بالمسؤولية)، قد يبدو قضية غير ذات شأن للبسطاء من الناس، لكنها مؤثرة في السلوك وفي المجال الوظيفي والاجتماعي والتربوي والوطني.

العائلة أصل المجتمع

والسؤال الاخير: على من تقع مسؤولية تنمية وتعزيز الشعور بالمسؤولية؟. (المدى) التقت عددا من الاكاديميين واساتذة الجامعات وطرحت عليهم هذه الاسئلة وغيرها بشأن هذا الموضوع، فكان لقاؤنا الاول مع المدير العام للدراسة الكردية والقوميات الاخرى الاستاذ (حسين الجاف) وسألناه اولا: هل نتعلم المسؤولية من السياسيين او من المجتمع؟ فقال: نتعلم المسؤولية من العائلة اولا، لان اصل المجتمع هو العائلة كما قال (كارل ماركس)، فالبنيان القويم يتأسس على الخلق القويم المفعم بالحب، وتنامي الشعور بالمسؤولية ينبع بداية من حرص العائلة على تنشئة ابنائها تنشئة صحيحة وصالحة تتوافر على قدر كبير من الانسجام بين الذات والمجتمع.

على ماذا نخشى اولا، على المصلحة الخاصة، ام مصلحة العائلة، ام على مصلحة الوطن؟. العناصر الثلاثة متداخلة فيما بينها، فانا اساسا ضد من يهتفون بالهتاف الشمولي (نموت ويحيا الوطن).ولماذا لا نبدله بالهتاف الذي ينبض بالحياة والحب فنقول: (نعيش ويحيا العراق)، فمن دون عقول ابناء العراق وابداعاتهم وتضحياتهم لن يكون هناك (عراق). ويضيف: ما قيمة ان يكون عراق بلا شعب؟، ووطن بلا سكا ن؟. اذا الخوف لا بد من ان يكون على الثلاثة بشكل متوازن وهو امر مطلوب ومشروع، على ان تبدأ وكما اعتقد التربية والثقافة بحب الاخرين، وبما ان الذات الفردية هي جزء صغير من الذات الجمعية الاكبر، اي الامة او الشعب، والتربية والثقافة تنبع اساسا من العائلة والبيت، اللذين ينتجان القيم الاصيلة والوعي والالتزام، اما الكراهية، فيجب ان توجه للارهاب والفساد والاجرام ولاعداء الحياة والمتخاذلين في بناءالوطن الذي ترنو عيون ابنائه صوب المستقبل،

هل الوطنية مجرد شعار؟ كلا، الوطنية ليست شعارا نتغنى به، انما هو انتماء وحب واخلاص وشرف وكرامة، تنمو مع الفرد، وهي تعبير عن انسانية المرء بعيدا عن التعصب والتطرف والتهور، وهي مسؤولية اجتماعية نبيلة.

المسؤولية سلوك فطري

لقاؤنا التالي كان مع الباحث في مركز البحوث البيئية الدكتور (صديق البغدادي) وسألناه: هل نتعلم المسؤولية من السياسيين أو من العائلة؟ فقال: المسؤولية في حقيقتها هي نوع من انواع السلوك الفطري يتعلمه الفرد منذ ولادته من ابويه، ويتنامى هذا السلوك مع نمو هذا الفرد فيتخذ نمطا من المسؤولية، كحرصه على بيته وعائلته، وارقى انواع الشعور بالمسؤولية ذلك الذي ينشأ ذاتيا والذي يرتكز على تحسسه وارتباطه بالوطن وحبه للناس وللمجتمع. ما تأثير البيئة الاجتماعية والوعي والثقافة على بلورة الشعور بالمسؤولية داخل الذات الفردية؟ تظل البيئة عنصر تقاطع في بناء وترسيخ المسؤولية الفردية، اذا ما اعتبرنا ان هذا الشعور فطري متوارث عبر الابوين وافراد الاسرة، سيصطدم حتما بالتقاطعات البيئية التي قد تفرز مفهوم (الشعلية) الذي يواجهه يوميا ويسمعه على الدوام (شعليك)، وهذه تمثل ضغوطا بيئوية اجتماعية، قد تسهم في تشويه الشعور الفطري النقي، لذلك فان البيئة الاجتماعية ان لم تكن ملائمة لنمو هذا الشعور فانها ستكون عنصراً مدمراً له.

حب الوطن هو معيار الاخلاص والنزاهه

ثم التقينا معاون رئيس مركز البحوث الدكتور (عبد الحميد محمد جواد) وسألناه: من من نتعلم المسؤولية؟ فقال: اعتقد ان المسؤولية تضامنية، نتعلمها من العائلة ومن المجتمع ومن المسؤولين ومن وقائع حياتنتا اليومية، وهي تمثل عبئا على جميع المواطنين، واذا لم يستطع المرء تحملها سيؤول به الحال الى الفشل حتما. ويضيف: ان دور العائلة في هذا الموضوع مهم وضروري جدا، الا ان انشغال العائلة في الظروف الراهنة بالمهام المعيشية وما تواجهه من صعوبات كثيرة في توفير ابسط مستلزمات الحياة اليومية لذلك تبدو بعيدة قليلا عن مسؤولياتها في تربية النشئ وتنمية المهارات لدى ابنائها. ما معيار الاخلاص والنزاهة؟ كل هذا يتجسد في حب الوطن، والسعي لأن نراه مزدهرا. ان معيار الحب هو افضل المعايير لقياس نزاهة الانسان واخلاصه لوطنه. ويؤكد: لا يخفى على احد ما للجانب المعيشي من اثر كبير على السلوك الفردي والجمعي وفي تجذر الشعور بالمسؤولية لدى افراد الاسرة، لكنه ليس المعيار الوحيد، ونحن نعرف اناسا عاشوا في الكفاف وأدوا مسؤولياتهم بشرف تجاه اسرهم وبلدهم.

المسؤولية تعني يقظة الضمير

تقول المدرسة المساعدة (ليلى لطيف علوان): ان خدمة المجتمع هي مسؤولية كل فرد من افراده من خلال العمل الفردي او الجمعي، وتضامن جميع شرائحه وفئاته، وفي اطار وطني واضح لا يتيح لاي احد فرصة التخلي عن مسؤولياته الاجتماعية والانسانية والوطنية، لانها تعني يقظة الضمير واداء الواجب. ولهذا فنحن نعول كثيرا على التربية التي يجب ان تركز اولا على حب الوطن وان تتقاطع تماما مع التطرف والغلو. وهذه مسؤولية الملاكات التربوية والاوساط الثقافية والمعرفية التي يجب عليها ان تتحمل اعباء الارتقاء بالمجتمع والنهوض به. ذلك لان الواقع الاجتماعي يشهد تدهورا مريعا.

بعد ذلك التقينا معاون رئيس قسم الليزر الدكتور (محمد صالح) الذي حدثنا قائلا: النشأة الاولى للانسان. هي البذرة التي تنغرس في الذات البشرية فاذا ما سقيت بالري الذي يمنحها الحياة فانها ستنمو وتكبر وستضرب جذرها في اعماق النفس، ان اخلاقية العائلة هي التي ستترك اثارها على طبائع الفرد ومنها سيتضح الشعور بالمسؤولية ويتمظهر بالحرص على ما سيوكل اليه لاحقا.

ويؤكد: التربية في بوادرها الاولى تبدأ بحب الذات، ثم تكبر دائرتها لتشمل العائلة والوطن،، ففي بذرتها الاولى تتمحور حول (الانا) ثم تسير نحو تطوير الذات وامتلاكها المهارات التي تؤدي الى انضاح (الانا) وتوجهها نحو ال (نحن)، اي من الذات الفردانية والشخصانية الى الذات الجمعية الملتصقة بالوطن وبالانسانية جمعاء. من الخاسر الان الوطني، المثقف، ام المفكر؟

الذات والعائلة والوطن

الطالبة الجامعية (رغد رضا علي) قالت: الذات والعائلة والوطن على مسافة واحدة من الحب/ فحب الذات هو جزء من حب العائلة وهو جزء ايضا من حب الوطن، وهذا يعني حب الناس، اي حب الشعب. وما اقدمه لنفسي هو بالتأكيد سينعكس تأثيره على عائلتي وعلى عطائي الوطني. وتوضح: هذه هي مسؤوليتي ازاء نفسي وعائلتي ووطني. وأنا ازدري كل من يعمل لمصلحته الشخصية من دون ان يعير اهتماما لمسؤوليته في العمل من اجل اشاعة الخير ورخاء الوطن واعماره، وفي المرحلة الراهنة، اجد امثال هؤلاء الكثير وربما يشكلون ظاهرة.يضيع في دوامتها الناس الخيرون والمخلصون.

المسؤولية لدى السياسي

الطالب الجامعي (ظافر عبد الجبار محمود) الذي قال: نتعلم المسؤولية من المدرسة والجامعة ومن العائلة ومن السياسيين لان لكل هؤلاء دور في تعزيز الشعور بالمسؤولية، ولكن وعلى اعتبار ان السياسي هو الاب الكبير لذا فمن المفروض ان نتعلمها منه، لاننا ابناء عائلته الكبيرة التي اسمها (الوطن)، وهؤلاء الابناء ينتظرون من هذا الاب الكبير ان يوفر لهم كل اسباب العيش الكريم فضلا عن سعيه لبناء (الوطن) ونشر الرخاء في ربوعه، وبسط السلام والامان بين ارجائه، والحفاظ على وحدته ولحمته الاجتماعية.

الديكتاتورية والبيروقراطية تؤخران نمو فكر الانسان ومداركه ومعارفه

لقاؤنا التالي كان مع الاستاذ في كلية الاعلام الدكتور (حميد جاعد) وسألناه: الشعور بالمسؤولية وترسيخ مدلولاتها ومعانيها، من ينميها في الفرد؟ فقال: الجامعة تأتي كمرحلة متأخرة، لان نمو الشعور بالمسؤولية يبدأ من العائلة والمدرسة، وعملية التنشئة تلعب دورا مهما في هذا المنحى وفي تحديد شخصية الفرد، فحينما يصل الانسان الى عمر ١٦ او ١٨ سنة تتبلور لديه العمليات التنظيمية، سلوكيا ونظاميا واجتماعيا، فاذا لم تنم هذه العناصر بشكل مبكر (فاقرأ عليه السلام)، وستظل الفوضى والسلوك العشوائي سبيلا لحياته، ويوضح: وهذا يختلف قطعا عن الانظمة الديكتاتورية القائمة على القوانين العسكرية القسرية التي تبقي الانسان خارج حدود حرية التفكير وفي اكتشاف الاشياء الجديدة التي تواجه الفرد في حياته، وكذلك البيروقراطية هي نظام قسري ايضا، الا انها تكون مفيدةاحيانا في الادارة، غير ان كلا النظامين يؤخران من امكانية نمو فكر الانسان ومداركه ومعارفه ومبادراته، بمعنى ان جميع النتائج المترتبة على سلوكيات ما بعد العشرين من العمر يتحملها المجتمع، وهذا ما شاهدناه من احداث بعد التغيير وما رافقها من اعمال سلب ونهب للمستشفيات ولمؤسسات الدولة، كان جميع ابطالها هم من الاعمار ٢٠- ٣٠ سنة وبما ان طلبتنا هم ضمن الاعمار التي ذكرتها فانهم بالتأكيد وعندما نتحدث اليهم يبدو لنا انهم متفهمون لهذه المواضيع، كما ان لديهم القدرة على التنظير فيها، ولكن عندما يطلب منهم تطبيقها لا يفعلون ذلك، ويؤكد: ان التطبيع السلوكي للانسان الذي يبدأ من وقت مبكر يحتاج الى نمو معرفي معين، لان الجانب السياسي يتمثل باتخاذ قرارات حياتية مهمة (تتعلق بمصير امة وبمصير شعب) (ومصالح واموال ومجتمع)، اذا، كيف يمكن للانسان ان يحاكم مثل قرارات كهذه اذا كان لا يمتلك المعرفة؟.

تحقيق كاريكيري

أساتذة وتلاميذ